احمد عبد الغفور عطار

الفصحى والعامية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨ م

أحمد عبد الغفور عطار

الفصحى والعامية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨ م



مقدمة

ألقى الكاتب الكبير العلامة الفاضل الأستاذ محمود تيمور، « محاضرة »(*) عنوانها : « العامية الفصحى » وقبيل موعد إلقائها بأيام تلقيت منه رسالة يخبرنى فيها أن اسمى بين المعقبين ، وفيهم الكاتب الفيلسوف الدكتور منصور فهمى — كاتم سر المجمع اللغوى — والعلامة الجليل الأمير مصطفى الشهابى ، وكلهم عضو المجمع .

وقيل لى : إن الناس يودون أن يسمعوا صوت مكة المكرمة — حرسها الله — صوت « البلاد المقدسة » أصل العربية وأم الفصحى .

(*) ألقيت محاضرة تيمور والتعقيب بقاعة الدكتور عبد الحميد سعيد بجمعية الشبان المسلمين مساء يوم الاثنين ٢ شعبان سنة ١٣٧٦ هـ (٤ مارس سنة ١٩٥٧) .

فرأيت من الخير أن أكون عند حسن ظن من طلبوا إلى التعقيب ، فأعددت هذا البحث وألقيته باسم بلادى المقدسة التى كانت وطن القبائل التى أخذت منها الفصحى . ووطن القبائل التى أخذت منها العربية فى حذر لمجاورتها الأعاجم أو اختلاطها بهم ؛ مشاركة منى للمجمعيين وغيرهم من المشتغلين بالعربية الذائدين عن حماها .

وأنا إذ أطبع هذه « المحاضرة » فإننى أهديها إلى الصديق الكريم الأستاذ محمود تيمور ؛ لأنها كانت بسببه ؛ ولولا بحثه ما كان هذا التعقيب . وإننى لسعيد حين أعيد الفضل إلى « تيمور » وأهدى إليه ما كان سببه وباعثه ، وأرد إليه التحية ولكن ليس بخير منها ولا بمثلها .

وإن جهود الأستاذ « تيمور » فى حرم الفصحى جهود مباركة مثمرة استحالت جهادا مقدساً فى هذه الأيام التى تشتعل نار الحرب على لغة القرآن من أصحاب الهدم والتحطيم فيقف فى ميدانها « تيمور » وزملاؤه مجاهدين .

ولقد عرف قراء العربية الأستاذ الكبير محمود تيمور فناناً أصيلا ، وقصاصا موهوبا ، ولم يكن معروفاً بهـذا « التضلع » فى اللغة العربية إلا عند الخاصة من المشتغلين بها ، لأن شهرته فى عالم القصة والفن غلبت شهرته فى اللغة وعلمه الواسع بفُصَحها ونوادرها ونحوها وصرفها وبكل ما يتصل بها من علوم وفنون .

وحديثه الليلة آية هذا العلم الدقيق الواسع .

وميزة الباحث العلامة محمود تيمور فى بحثه الجديد أنه لا يذهب مذهب الضعفاء الجاهلين أو ذوى الأهواء الذين يريدون القضاء على الفصحى ، وكتابة العلم والأدب بالعامية ، ولا مذهب المتزمتين الجامدين الذين لا يريدون أن يضيفوا جديداً إلى المعجم العربى ، بل هو يمسك بطرفى الحبل فيلتقيان ، نحافظ على الفصحى ، ونأخذ من غيرها ما عسى الحاجة إليه ؛ نزيد به ثروتنا اللغوية .

ولقد عنيت باللغة العامية منذ سنين ، فدرستها ووضعت

لها قواعد كقواعد الفصحى ، وعنيت بنحوها وصرفها ، فلكل لغة — سواء أكانت عامية أم فصيحة — قواعد ثابتة ، وصنّفت معجماً للعامية رددت فيه آلاف الكلمات العامية إلى أصولها العربية ، أو أصولها فى اللغات الأخرى.

وخرجت من دراستى للعامية أن أكثر ما نستعمل من كلماتها فصيح أو قريب من الفصيح ، ما عدا المعربات أو الكلمات التى وضعتها وضعاً لا يختلف كثيراً عن الأصول العربية .

٢٩ /٦/ ١٣٧٧ هـ
١٩ /١/ ١٩٥٨ م

أحمد عبد الغفور عطار

الفصحى والعاميـــة

اللغة العربية : إحدى اللغات الحية التى قامت على وجه الأرض وأدت رسالتها فى الحياة كخير ما تؤدى الرسالات ؛ وعبرت فى عصورها الأولى عن حاجات المجتمعات التى كانت تتخذها لغة تعبر بها عن مطالبها وحاجاتها وآلامها وآمالها وآدابها وعلومها وفنونها ، ولم تجمد فى ماضيها أو تقف عن السير مع الزمن والحياة ، بل مشت مع كل مجتمع عربى ، تسمو بسموه ، وتتأخر بتأخره .

وما زالت العربية حتى الآن متسعة للتعبير عن الحياة وما جدّ فيها ، ومستعدة أن تتسع وتتسع أكثر من ذى قبل لكل جديد مبتكر ، ومخترع حديث ، حتى تكون كلغات العصر الحية التى استوعبت الحياة وكل ما جدّ فيها ؛

واللغة — كل لغة — ظاهرة اجتماعية ، وثمرة من ثمرات المجتمع التى تتخذها وسيلة للإفصاح والإبانة والفهم والتعبير : وهى التى تدخر فى كلماتها أخلاق أهلها وعاداتهم ونشاطهم الأدبى والفكرى وكل ما يتصل بهم بسبب أو بأكثر من سبب ، وهى بعد ذلك تؤثر فى السلوك الإنسانى للمجتمع

سواء أكان سلوك الجماعات أم سلوك الأفراد ، وتؤثر فى الذهن والعقل والشعور .

والعربية كانت قائمة خير قيام بحاجات أهلها ، وكلما تقدم بهم الزمن وتقدمت بهم الحياة تقدمت معهم لغتهم التى فتحت أبوابها لاستقبال الجديد بعد أن يَصهروا ما يمكن صهره من الألفاظ فى « بواتقهم » وإبقاء ما لا سبيل لهم إلى تغييره ، والإفادة منه فى الإفصاح والتعبير ، واستخدامها عند الضرورة والحاجة ، وتوسعة اللغة لا بالمترادفات بل بالمفردات التى تعطى كل كلمة منها معنى خاصا أو صورة خاصة أو تشير إلى مسمى خاص .

كانت اللغة سهلة مرنة متسامحة عند من أخذنا عنهم هذه اللغة ، إلا أنها جمدت منذ قرون ، ووقف نشاطها فلم تطق أن تسير لأن الأغلال والقيود عثّرت خطاها ومنعتها من السير الحثيث ؛ وصرنا أسرى اللغة بعد أن كانت هى نفسها فى خدمتنا و « جمدناها » .

وكانت العربية الأولى لغة القبائل التى سكنت شبه الجزيرة ،

من اليمن إلى الشام إلى العراق وتخوم فلسطين وسيناء ، وقد عرفت باللغة السريانية خطأ نجم من إطلاق اليونان هذا الاسم عليها ، وسبب ذلك أنهم كانوا يسمون الشام الشمالية أشوريه أو سورية فشاعت تسمية العربية بالسريانية [١] .

والعربية : إحدى اللغات السامية « واللغات السامية المشهورة فى القدم : الأكادية ــ الأشورية البابلية ــ والسامية الشرقية ، والسامية الغربية . وتنقسم هـذه إلى العربية الشمالية والعربية الجنوبية ، أى المعينية والسبئية والأثيوبية ؛ ومعها لهجات شتى بعضها قديم وبعضها حديث ، وكل تقسيم من هذه التقسيمات فإنما هو مسألة اصطلاح ، والتفرقة فيه أقل من التفرقة بين اللغات الهندية الجرمانية التى درسها الباحثون خلال القرن أو القرن والنصف الأخير ، إذ أن اللغات السامية القديمة ــ عدا الأكادية ــ تتقارب فى الأجرومية والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ، ولا يلحظ الانتقال من لهجة إلى لهجة

---

(١) أبوالأنبياء .

إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية ، ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكن الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصيلة فى هذه الأيام[١] » .

وما دامت العربية تعود مع اللغات السامية الأخرى إلى أصل واحد فإن من الطبيعى أن تتقارب وتأتلف فى بعض الأصول والقواعد ، ويأخذ بعضها من بعض كلما أعوز الأمر ؛ وقد نقل مرجليوث عن دسو Dussaud « أن الأحافير النبطية التى ترجع إلى القرن الثالث قبل الهجرة تدل على تقارب شديد بين الآرامية والعربية الفصحى[١] » .

« وقد لوحظ التقارب بين اللغات أو اللهجات العربية ، فيما هو أقدم من ذلك كثيراً بحيث لا يحسب تاريخه بأقل من ألفى سنة قبل الميلاد ، فإن أداة التعريف وضمير المتكلم والغائب وكلمات النفى والنهى وتصريف الأفعال مشتركة بين العربية واللغة الأشورية التى تنسب إليها السريانية[١] » .

---

(١) أبو الأنبياء .

وهناك تشابه ظاهر بين العربية والبابلية فى كثير من أوجه الإعراب والحركات ، وكل الأفعال فى البابلية قريبة فى صيغها من العربية ، وعلامة الجمع فى البابلية والعربية واحدة[١] .

وكل هذا يثبت أن العربية لم تكن مقطوعة النسب منبتة لا تتصل بأخوات ، بل لها أخوات ، ولهن جميعا أصل واحد تفرعن منه .

وكانت اللغة العربية الأولى لغة عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجرهم من أولاد إرم بن سام كما تذكر المصادر العربية[٢] ؛ وهذه هى المعروفة فى تواريخ العرب بالقبائل البائدة .

وإن ما اتفق عليه مؤرخو العرب القدماء من أهل الحجاز والمؤرخون المحدثون أن اليمن كانت مصدر العربية الأولى ، لأن العاربة هم أهل اليمن ، ثم يليهم المستعربة[٢]

---

(١) الكنز فى قواعد اللغة العبرية ص ١٩ .
(٢) تهذيب الألفاظ .

إلا أن من الثابت تاريخيا أن العربية لم تبلغ حد النضج والصقل والسمو فى اليمن ، بل بلغت ذلك كله فى الحجاز عندما استقر بها المطاف فى رحابه بعد انتقالها من اليمن إلى العراق فالحجاز ، حيث بلغت فى الحجاز الأوج وكتب لها أن تتهذب وتبلغ حد الكمال .

وأول تنقيح للعربية كان على يد يعرب بن قحطان .

ولكن مع هذا لم تكن عربيتهم العربية الفصحى التى عرفناها فى الآثار والصور البيانية التى وصلتنا من الجاهلية .

ومن غير شك أن اللغة العربية بلغت أوج مجدها وارتفعت إلى أعلى الذرى فى عهد الإسلام الأول ، لأنها أصبحت جزءاً من الدين ، ولكن اهتمام أبنائها كان منذ العصر الجاهلى ، إلا أن هذا الاهتمام ازداد بظهور الإسلام ، ففى عصر النبوة وصدر الإسلام أخذ الناس يهتمون بالعربية كثيرا ، ويحرصون عليها لأنها لغة القرآن والدين والرسول الصادق الأمين .

ثم انتقل الاهتمام عند ازدياد الفتح الإسلامى إلى ناحية أخرى ألا وهى حفظُ التراث اللغوى والدفاعُ عنه ، وردُّ عدوان الدخيل الذى قذفته البلدان المفتوحة والأمم المغلوبة .

ولكن من الشطط أن يظن الناس أن الدخيل كان متأخرا أى بعد عصور الاحتجاج ، بل كان الدخيل منذ عرفت العربية ، فما المعرب فى حقيقته إن لم يكن دخيلا ؟

ومن الشطط أيضاً أن يظن الناس أن كل عربى فصيح يُحتج بلغته كان يعرف معنى كل كلمة تصافح سمعه ، ولقد ثبت أن الراسخين فى فهم اللغة العربية وفصحها ونوادرها وحوشيها كانوا يجهلون معانى كثير من الألفاظ .

روى سهل بن مُعاذ عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزال الأمة على شريعة ما لم يظهر فيها ثلاث : ما لم يُقْبَض منهم العلم ، ويكثر فيهم الخبث ، وتظهر فيهم السقّارة . قالوا : وما السقّارة يا رسول الله ؟ قال : بشر يكونون فى آخر الزمان تحيتهم بينهم إذا تلاقوا التلاعن » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحبكم إلىَّ وأقربكم مجلساً منى يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وأبغضَكم إلى وأبعدَكم منى مجلساً يوم القيامة هم الثرثارون المتشدقون المتفيهقون . قالوا : يارسول الله قد عرفنا الثرثارين والمتشدقين ؟ فن المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون » .

وسأل عمر رضى الله عنه أصحابه وهو على المنبر عن معنى التخوف فى قوله تعالى : (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ) فسكتوا ؛ فقام شيخ من هـذيل فقال : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص . قال عمر : فهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال : نعم . قال شاعرنا زهير[١] :

تخوَّفَ الرحْل منها تامِكا قَرِدا
كما تخوَّفَ عُودَ النبعة السَّفِنُ

وسمع على كرم الله وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب وفد بنى نَهد فقال : « يا رسول الله ، نحن

---

(١) التهذيب للأزهرى ، وديوان زهير .

بنو أب واحد ونراك تكلم العرب بما لا نفهم أكثره ، وكان رسول الله يوضح ما يسألونه عنه ممـا لا يعرفون معناه .

وسئل عمر بن الخطاب : ما الأبُّ ؟ فلم يعرف معناه .

ومثل هذه الحوادث كثير . وكلها تدل على أن العرب لم يكونوا يعرفون معنى كل ما يسمعون من ألفاظ الفصحى ، بل كانت تغيب عنهم معانى كثير ، ويجهلون معانى كثير .

كما أن من الخطأ أن يفهم أحدنا أن الجاهليين كانوا فى نجوة من الخطأ وفى عصمة من اللحن ، بل كان فيهم من يلحن ويخطئ ، وقد جاء فى الشعر الجاهلى أبيات لا تجيزها قواعد النحو والصرف ، وبعضها لا تجيزه القواعد إلا بعد تأويل مسف وعلل مصطنعة واعتذار مفتعل .

وهذا طبيعى فى اللغات ، وطبيعى فى اللغة العربية التى

تتفق مع أخوات لها فى كثير من القواعد والصيغ والتراكيب ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يصيب المرء فى كل كلمة ينطقها أو كل جملة يؤلفها إلا الرسل .

ونحن نشاهد أن المتحدث باللغة العامية التى خرجت على القواعد وفتحت الباب للدخيل من كل لغة يغلط فيها بعض الأحيان غلطا قد يكون سبق لسان فلا يصوبه ، فيسمعه مَن دونه ويظن صوابا فيستعمله فيغلط وينتشر الغلط ، وذلك كثير مثل تذكير المؤنث وتأنيث المذكر .

ولعل الرواسب الأولى للغة العربية — قبل أن تنضج وتكمل وتستوى — تطفو على الألسنة وتنزلق منها ، وذلك يبدو فى اللغات الشاذة وبعض التصحيف والتحريف وفى اللحن والاشتقاق الغالط وغيرها .

وإن لغة تتصل فى مصدرها الأول بلغات سامية كثيرة لابد أن يدخل عليها بعض الخطأ ، وإن لغة يشارك

العجمُ الناطقين بها لابد أن تتأثر ألسنة أصحابها بما تلتقط من الدخيل .

ولا شك عندى أن دخول أبناء إسماعيل الاثنى عشر فى العرب أتاح للكلمات الدخيلة التى أصبحت عربية فصيحة بعد أن عفَّ على أصولها وحقيقة مصادرها النسيان أو الجهل أن تدخل فى لسان العرب المبين .

وإذا عُرِف أن كثيرا من شذاذ الآفاق والهاربين من الظلم فى مصر والشام والعراق وفارس ويونان والهند تركوا أوطانهم إلى جزيرة العرب حتى يكونوا فى مأمن من الشر الذى يريد أن يتخطفهم ، لأن الجزيرة صحراء تحول بينهم وبين حكوماتهم أو طالبيهم ويمنع الوصول إليهم ؛ عرفنا أنهم انتقلوا بلغاتهم ، والمجاوة أو الاختلاط يؤثر فى اللغة .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد اكتسح الفرس بلاد الكلدان وأرهق الغزاة سكانها حتى اضطر عدد كبير

منهم أن يهجروا وطنهم الأصلى إلى بلاد العرب حيث يجدون الأمن ويبتعدون عن الموت .

وهذه الموجات البشرية التى انتقلت إلى الجزيرة العربية أثرت فى اللغة العربية وأمدتها بكلمات ، ونقلت معها عاداتٍ وأثارة من علم وحضارة عبروا عنها بألفاظ لم تكن معروفة عند العرب .

وقد أشار القرآن الكريم إلى العامية ضمنا فى قوله تعالى : (لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) واحترز القرآن عندما وصف اللسان بأنه عربى فوصفه بأنه مبين ، والمبين : الفصيح الذى لا كدرة فيه من عجمة أو لحن أو عيب (١) .

وتثبت الآية – أيضاً – أن مكة كانت تضم غير العرب ، والتاريخ الصحيح يقول بذلك .

ونفهم من كل ما قدمنا أن العربية لم تقف فى وجه

---

(١) روح المعانى ١٤ : ٢٣٤ والنسفى ٢ : ٣٣٢ .

الموجات البشرية ولا فى وجه الكلمات الدخيلة ، بل استقبلت الآلاف ، وما عرفه العرب أو أخذوه من الدخيل لحاجتهم إليه طوعوه للسانهم وعربوه ، وأعتقد أن كثيراً من الكلمات لم نكن عربية الأصل . ولكن جعل العلماء والباحثين بأصولها الصحيحة حماهم على اعتبارها عربية محضا .

ونخلص من كل هذه التوطئة إلى أن فى العربية ما ليس بعربى . وفى الشعر العربى وكلام العرب كثيراً من الآثار البيانية الخاطئة بالنسبة للقواعد الصحيحة التى لاتأويل فيها ولا تسويغ إلا باللغة المغثية والتقدير المفتعل .

ونجد هذا الخطأ النحوى أو اللغوى أو الصرفى فى الأعصر التى استقام فيه اللسان العربى وبلغ أوجه فى السلامة والإعراب والصحة والقوة والنماء .

وغير بعيد — عندى — أن يكون هذا الخطأ أثرا من آثار رواسب اللغة العربية قبل كمالها وبلوغها مرتبة الصقل والتهذيب ؛ تظهر على الألسنة ولا يستطيع الناطق لها ردا .

وعلى سبيل المثال أذكر بعض هـــذه الرواسب التى اعتدها من الخطأ الذى وقع من العرب ممن يحتج بلغتهم .

هو خطأ عند من يبتغى السهولة واليسر والقاعدة الصحيحة التى لا تلف ولا تدور ، هو ــ عندى ــ خطأ وإن كان بعض اللغات يجيزه ، وأنا لا أجيز لأننى لا أريد للقاعدة الصحيحة أن تعتل أو تتهدم أو يعتورها بعض الفساد ، بل لا أسيغ الشاذ أن يجد طريقا ليُضعف من القاعدة ، كما لا أحب العلة أو التقدير الذى يراد منه تسويغ الخطأ أو الشاذ .

وهذه أمثلة مما أعتده خطأ . قال أبو النجم العجلى :

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال آخر :

تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هابى التراب عقيم

وقال راجز من ضبة :

أعرف منها الجيد والعينانا
ومنخرين أشبها ظبيانا

ولجرير :

عرفنا جعفرا وبنى أبيـه
وأنكرنا زعانف آخرينِ

وقال شاعر من خزاعة ، وقيل من جرهم :

ألم نسق الحجيج سلى معدا
سنيناً ما نَعُد لها حسابا

وقال آخر :

إنى أبىٌّ أبىٌّ من أبيِّينِ
وابن أبىّ أبى من أبيينِ

وقال الآخر :

غدا مالك يرمى نسائى كأنما
نسائى لسهمى مالك غرضانِ
فيارب فاترك لى جهيمة أعصرا
فمالك موت بالقضاء دهانى

يريد : ملك الموت .

ولقيس بن زهير صاحب داحس وهى فرسهلر :

ألم يأتيك والأنباء تُنْمى

بما لاقت لبون بنى زياد

ولزهير :

متى تأتيه تأتى لج بحر

تقاذف فى غواربه السفينُ

وقال آخر :

* قفا عند مما تعرفان ربوعِ *

وقال شاعر :

أضربَ عنك الهموم طارقها

ضربك بالسيف قونس الفرس

وأنشد أبو زيد فى نوادره :

من أى يومىَّ من الموت أفر

أيوم لم يَقْدُرَ أم يوم قدر

وقالت عائشة بنت الأعجم :

فى كل ما هم أمضى رأيه قدما

ولم يشاورَ فى الأمر الذى فعلا

وقيل :

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن

خطاك خفافا إن حراسنا أسدا

وقال العجاج :

* ليت أيام الصبا رواجعا *

ولذى الخرق الطهوى :

يقول الخنا وأبغض العجم ناطقاً

إلى ربنا صوت الحمار اليجدعُ

وقول الآخر :

فذو المال يأتى ماله دون عرضه

لما نابه والطارق اليتعمل

وقيل :

ما أنت بالحكم الترضى حكومته

ولا الأصيل ولاذى الرأى والحسب

وقال آخر :

لا تبعثن الحرب إنى لك الـ

ـينذر من نيرانها فاتق

وقيل :

أشاهرُنَّ بعدنا السيوفا

و : أقائلُن أحضروا الشهودا

و : دامنَّ سعدك إن رحمت متيما

و : فما وجدت نساء بنى تميم

حلائل أسودين وأحمرين

و : فلن يحلُ للعينين بعدك منظر

وقال العمانى :

كأن أذنيه إذا تشوفا

قادمة أو قلماً محـــرفا

وقال شاعر :

أبيت أسرى وتبيتى تدلكى

وجهك بالعنبر والمسك الذكى

بل وردت فى القرآن الكريم قراءات شاذة لا أسيغها ولا أقرأ بها ولا أجيز القراءة بها ، ومن ذلك : قراءة أبى جعفر المنصور لقوله تعالى : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) قرأها أبو جعفر (ألم نشرحَ لك صدرك) .

وخرَّج هذه القراءة ابن عطية وجماعة على أن الأصل ألم نشرحَن ؛ بنون التوكيد الخفيفة فأبدل من النون ألفا ثم حذفها تخفيفا . وفى البحر : إن لهذه القراءة تخريجا أحسن مما ذكر ، وهو أن الفتح على لغة من ينصب بها ويجزم بلن عكس المعروف .

كل هذه الأمثلة والشواهد تدل على أن مخالفة القاعدة المثلى كانت معروفة فى العهود التى يحتج بلغة أهلها . ..

والشذوذ فى العربية كثير ، بل كان فى العربية مع

الشذوذ خطأ وغلط فى آثار من وصلتنا آثارهم ، وخاف العلماء على اللغة فوقفوا أمام هذه الغزوات يقظين ، ومنعوا أخذ اللغة إلا من القبائل العربية الموثوق بها ، ووضعوا لتلقى االلغة على قاعدة صعبة ، فمنعوا أخذها من حضرى خشية أن يكون فى لغته ما ليس من العربية فيدخل فى صميمها .

ومنعوا الأخذ من سكان البرارى ممن كانت مساكنهم مجاورة للأمم غير العربية كلخم وجذام جيران مصر والقبط ، وقضاعة وغسان وإياد جيران أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ؛ وتغلب واليمن الذين كانوا بالجزيرة لمجاورتهم اليونان ؛ وبكر جيران النبط والفرس ، وعبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين وكانوا يختلطون بالهند والفرس ، وأهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ، وبنى حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم النجار المقيمين بينهم ، ولم تؤخذ اللغة إلا من قريش وقيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانه وبعض طيء[1] ؛

(١) البستان : ١ : ٣٤ .

كل هذا يدل على أن القبائل العربية فى العصر الجاهلى لم تكن لغتها العربية وقفاً على الفصحى وحدها ، بل كان فيها كثير من الدخيل الذى قذفته الأمم المجاورة وأفراد الشعوب المختلطون بالعرب ، ويدل منع العلماء أخذ اللغة من أولئك القبائل على أن العربية الفصحى لم تكن صافية خالصة ، وإلا لما منعوا الأخذ منها وتلقى اللغة عنها .

واشتراك العربية مع شقيقاتها فى النسب ، ثم مجاورة القبائل العربية لغير العرب جعلا الباب مفتوحا للدخيل ، فبهراء كانت تكسر حرف المضارعة — كالعامية الحاضرة — وأعتقد أن مرد هذا إلى العبرية والسريانية اللتين كانتا تكسران حرف المضارعة[1] .

وسرت عدوى كسر حرف المضارعة من العبرية والسريانية إلى بهراء ، ومن بهراء إلى العرب قاطبة — ما عدا الحجاز — إلا أن هذه العدوى عندما انتقلت إلى العرب

---

(١) الكنز فى قواعد العبرية ص ١٧ .

لم تنتقل إليها بحذافيرها ، بل اقتصرت على ناحية واحدة ، وقد ذكر سيبويه فى كتابه (٢ :) : يتفق جميع العرب فى كسر حرف المضارعة إلا أهل الحجاز فى نحو فَعِل إذا كانت فاؤه أو لامه ياء أو واواً نحو وجل وخشى فيقولون : نِيجل ونِخشى ، بكسر نون المضارعة .

وهذا ما يسمى بتلتلة بهراء .

وقل مثل ذلك فى طمطمانية حمير ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وفخفخة هذيل ، ووكم ربيعة ، ووهْم كلب ، وعجعجة قضاعة ، وشنشنة اليمن وتمها ، وعجرفة ضبة ، وغير ذلك من العيوب اللسانية التى لا تتفق مع الفصحى فى النطق ومخارج الحروف .

وننتهى من هذه المقدمة أن الفصحى لم تكن بعيدة كل البعد عن الكلمات الدخيلة فى متن اللغة ، كما أن الخروج على قواعد النحو والصرف كان موجوداً كثيراً .

وأريد مما ذكرت من توطئات وشواهد ونظرات فيلولوجية ، أن أجعله كتمهيد لرأيى حول العامية ومنشئها .

وأرى أن العامية لم تكن وليدا بعد عصر صدر الإسلام أو العصر الذى يليه ، بل كانت قبل الفصحى ، وأعتقد أن الآثار البيانية — شعراً أو نثرا — مما وصلنا من الجاهليين وغيرهم لا يمكن أن يكون دليلا على أن العامية لم تكن موجودة .

العامية موجودة فى لغة التخاطب ، ولكن ليست كعاميتنا التى انفصلت عن الفصحى واتخذت لها عالما خاصا تعيش فيه حتى هزمت الفصحى وزوتها فى حدود الكتب والأقلام .

وللدلالة على أن العامية كانت موجودة منذ القدم ومشت مع الفصحى فى كل أدوارها نقدم بعض الأدلة :

١ — اتجاه الموجات البشرية من الأقطار المجاورة غير العربية إلى بلاد العربية ، واختلاط العرب بالعجم واتخاذ الجوارى منهم ، حتى أن شاعراً كأعشى قيس لم يتحرج من استعمال مئات الكلمات غير العربية مما جعل بعض اللغويين لا يستشهدون بشعره .

٢ — منعُ أئمة اللغة تلقِّي العربية من قبائل كثيرة عربية كلخم وجذام وقضاعة وغسان وإياد وتغلب وبكر وعبد القيس وثقيف وأهل الطائف لأنهم جاوروا أمما أعجمية واختلطوا بأفراد وشعوب غير عربية .

٣ — الآثار البيانية ليست حجة على أن العربية الفصحى كانت لغة عامة الناس وخاصتهم ، ولو افترضنا أن مؤرخا باحثاً من علماء اللغة جاء يدرس اللغة العربية المعاصرة بعد ألف سنة ، واتخذ الآثار البيانية التى تتجمع بين يديه فى الكتب وسيلة درسه وتمحيصه واتخذ منها الدليل ؛ لزعم أننا كنا كالعرب نتحدث الفصحى ونتخاطب بها لأن آثارنا المدونة مكتوبة بالفصحى إلا ماندر .

إن كل أساطين الأدب الحديث يكتب بالفصحى ويتحدث بها ولكنه يتحدث بالعامية أيضاً ، ولكن فصحاه مدونة وعاميته غير مدونة ، فإذا جاء مؤرخ بعد ألف سنة وعدَّ هؤلاء فصحاء فى كتابتهم ولغة تخاطبهم لكان بعيداً عن الصواب .

وكذلك نحن عنـــدما نؤرخ للجاهليين والعصور التى يحتج بلغة أهلها ، ولا نلقى بالا للحقائق ، فإننا نجانب الرشاد ، ونغفل حقائق علمية ثابتة ، لأننا نظن أن ما وصلنا من شعر ونثر هو صورة للغة التخاطب فى ذلك الزمان .

٤ ــ الآثار البيانية القديمة التى نعثر فيها على أبيات خاطئة وكلام غالط كالشواهد التى مثلنا بها ، وكلها مما يحتج به .

٥ ــ عدم تيسر العصمة من الخطأ فى اللغة العربية ولا فى غيرها من اللغات .

٦ ــ مخالفة القواعد النحوية والصرفية .

٧ ــ اختلاف لهجات الخاصة عن العامة ، وهى ضرورة فى كل لغات العالم قديمة وحديثة ...

وليس معنى قولنا : إن العامية سبقت الفصحى أو صاحبتها فى كل أدوارها ؛ أن العامية الأولى مثل عاميتنا

الحاضرة ، بل إن فصحانا واستعمالنا لها وأساليبنا وطرق تفكيرنا ليست كفصحى القدماء واستعمالهم وأساليبهم وطرق تفكيرهم ، فكما أن هناك فوارق بين فصحاهم وفصحانا كذلك نجد فوارق كبيرة بين عاميتنا وعاميتهم ، بل العامية التى كنت أسمعها وأتحدث بها قبل خمس عشرة سنة ، ليست العامية التى أسمعها وأتحدث بها فقد ارتقت كثيرا وقطعت مراحل واسعة نحو الفصحى .

فالعامية فى العصور الأولى لم تكن تعدو حالات شاذة محدودة ؛ منها الخروج على القواعد العربية السليمة التى لا تأويل فيها ولا التواء ، ومنها : الإبدال ، والقلب ، وعدم المبالاة بمخارج بعض الحروف .

أما العامية الآن فهى شر مستطير ، ومن هذا الشر : ترك الإعراب وتسكين أواخر الكلمات ، ولعل لهم أسوة سيئة ببكر بن وائل وقوم من تميم الألى يسكنون المتحرك فى الكلمة — لا الجملة — استخفافا مثل : عَلْمَ

– الفعل الماضي – وفخِذ ورجُل ، يقولون فيهن : علْمَ وفَخْذ ورَجْل . قال أبو النجم العجلي :

لو عُصْر منه البان والمسك انعصر

يريد : عُصِرَ ، فسكّن تخفيفا أو ضرورة ، وأظنه هنا ضرورة ، وهذه اللغة كثيرة في تغلب ، وإذا تجاورت الضمتان أو الكسرتان خففوا مثل : عُنُق ، وإبل ؛ يقولون : عنْق ، وإبْل .

ولعل هذا السبب نفسه حمل العرب على الوقوف على المنون بالسكون نحو : جاء محمدٌ ، يقال فيه : جاء محمدْ . وأبدلوا من التنوين ألفا ساكنة في المنصوب ، مثل أكرمت محمدا ، ووقفت ربيعة في الأحوال كلها على المنون بالسكون فقالوا : أكرمت محمدْ ؛ كما ينطق عامة البلدان العربية في عصرنا هذا .

وعلماء اللغة الباحثون لم يحددوا وقت ظهور العامية ، ولكني أرى أن العامية – كما ذكرتُ – قديمة أقدم

الفصحى ، ثم تقدمت عندما أصبحت لغة فن وأدب ، وصارت اللغة الغالبة الفصحى ؛ والعامية لم تكن لغة قائمة معروفة المعالم واضحة السمات كالعامية المعاصرة أو العامية التي عرفت فى القرن الثالث الهجرى وما بعده من القرون ، بل كانت الفصحى إلا فى بعض الحالات الشاذة .

وأنا أسمي اللحن المعروف قديماً وأسمي اللغات الشاذة والمتروكة عامية لأنها تعد عامية بنسبة ذلك العصر الذهبي الذى كانت فيه السلائق العربية سليمة والألسنةُ قويمة .

ولم ينص فى التاريخ على الخطأ اللغوى الذى ارتكب أمام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن نص على الخطأ الذى وقع أمام عمر ، وفى وسع النحاة لو كانوا فى عصر عمر أن يسوغوا خطأ كاتب أبي موسى الأشعرى الذى كتب « من أبو موسى » وكان فى وسعهم أن يحتجوا بلغة من ألزم الأسماء الخمسة حالة واحدة .

وفى « متعلمين » التى وردت فى قول بعض الناس أمام عمر : « نحن قوم متعلمين » لا يخفق النحاة فى

التماس المعذرة أو إقامة الدليل على الجواز ما دام الحذف والتقدير والتأويل من المطايا الموصلة إلى الغاية المرجوة عند من يتبعون الهوى .

ولكن صحيح الإعراب أصح وأقوى وأقوم من « يجوز » و « هذا على لغة كذا . » الخ .

وهذا من العامية الأولى بنسبة تلك السلائق الصحيحة والألسنة القويمة .

ونستدل من هذه الحوادث أن الناس كانوا يتعلمون بقدر ما يسعهم عن اللحن خشية الاتهام فى السليقة وسلامة اللسان ، كما أننا نستدل على أن القوّامين على العربية كانوا غُيُرا عليها ، ويرون اللحن عيبا ومنقصة وضلالا بل كان إثماً يستوجب مقترفه الجزاء .

ولولا شناعة اللحن وفظاعته ، وغيرة الرسول صلى الله عليه وسلم على العربية لما قال : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » ولما أمر عمر بتقنيع اللاحن سوطا تأديبا له وتقويما .

واستنكار اللحن لم يكن طابع ذلك العصر وحده ، بل ما يزال حتى يومنا هذا ، ولكن إلفنا اللحن خفف من وقعه على أسماعنا ، وكثرتَه أسكتتنا عن الاستنكار والاحتجاج .

قال الصولى : حدثنا أحمد بن يحيى بن ثعلب قال : كان ابن قادم مع إسحاق بن إبراهيم المصعبى ، فكتب كاتبه ميمون بن إبراهيم إلى المأمون كتابا فيه : « وهذا المال مالا يجب عل فلان » وخط المأمون على « مالا » ووقع بخطه فى حاشية الكتاب : أتكاتبنى بلحن يا إسحاق ؟ فاشتد ذلك عليه . قال : فحدثنى ابن قادم قال : أتانى ميمون فقال : الله فىَّ ! احتل لى ! فحضرت فسألنى إسحاق عن الحرف ، فقلت : الوجه ؛ وهذا المال مال ، ومالاً يجوز على تأويل ، لأخلِّص الكاتب . فقال إسحاق لكاتبه : قد عفوت عنك ، فدعنى من « يجوز » والزم صحيح الإعراب.

وهذه الحادثة على بساطتها تدل على أن اللحن كان قبيحا شنيعا ، حتى أن الخليفة يستنكر ويلوم ، ولا يعفى عامله من التوبيخ حتى يشتد ذلك عليه ، ويكفى للدلالة على تصوير ما نجم من اللحن أن يقول الكاتب للنحوى : الله فىّ . وهذه الكلمة وحدها كافية للدلالة على خوف اللاحن وذعره وإدراكه للكبيرة التى اجترح ، والتى عفا عنها الحاكم .

وصورة الحادثة لها دلالتها .

وعندما كثر دخول الأعاجم بلاد العرب أيام عمر ، واستمر دخولهم فى موجات بشرية كبيرة حتى أيام عثمان خشى الصحابة على القرآن فدونوه ، ووحّد عثمان المصاحف خوف البلبلة والفرقة والاضطراب .

وإن أول طلائع العامية المستفحلة بدا عندما أراد العجم تعلم الفصحى وذلك فى عهد الراشدين ، تلك العامية التى لم يكن العصر الجاهلى يعرفها ، بل ما كان يعرف منها إلا

بعض اللحن وبعض عيوب اللسان فى القبائل المجاورة للأعاجم من روم وفرس ويونان وغيرهم .

ثم أخذت العامية تنقلب من حال إلى حال لا يخلو من البشاعة على الأذن التى ألفت الفصحى حتى أصبحت عامية مبتذلة فى عهد العباسيين إذ ازدادت مع ذوى النفوذ الأعجمى فى حكومة بنى العباس قوة وعنفا .

ما كادت الأمة العربية تستدبر عصر بنى أمية وتستقبل عهد بنى العباس حتى كانت العامية لغة التخاطب إلا فى مجالس الخاصة ، كما بقيت عامية البدو أقرب إلى الفصحى لبعدهم عن الأعاجم وندْرَة مخالطتهم إياهم ، أما سكان المدن والأمصار كالبصرة والكوفة والحجاز فقد كانت ملتقى الفصحى والعامية ، إذ الثانية كانت لغة التخاطب العام لأنها لغة التجار والسوق ، أما الفصحى فاقتصرت على العلماء والكتاب وخاصة الناس من المثقفين فيما بينهم من حديث أو كتاب .

بل استطاعت العامية أول الأمر أن تتدسس إلى الدواوين وإلى أقلام الكتاب والفقهاء والمحدثين .

وهذا طبيعى ، فالأمويون — برغم ما استحدثوا فى الإسلام من بدع منكرة — كانوا متعصبين للعروبة ولغتها ، أما العباسيون فكانوا عالة على العجم فى بناء ملكهم ، فهم يرعون لهم الفضل وتركوهم يعملون ما يشاءون ؛ الحكم حكمهم ، والرأى رأيهم ، ينقلون من أممهم وشعوبهم عادات ولهجات حتى شاعت العامية ودخلت فى العربية ألفاظ كثيرة بقيت على عجمتها ، ومعظم هذه الألفاظ مما يختص بالمشمومات والمشروبات والأطعمة والأمتعة غير المعروفة فى البيئة العربية ، والطب ، ودواوين شعراء هذا العصر زاخرة بمئات الألفاظ الفارسية والرومية والهندية وغيرها .

ومما أعان على فشو العامية وهجوم مئات الكلمات بل

آلافها عوامل كثيرة وأسباب متعددة ذكرنا بعضها فيما قدمنا فى كلمتنا هذه ونضيف إليها عوامل وأسباباً أخرى ، منها : ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية ، كما أعان على ذيوع اللحن : انبراء علماء النحو الخونة للعلم يسوغون الخطأ بالشاذ والمتروك واللهجات غير الموثوق بها والمنحول من الشواهد كما صنع ابن قادم فى تسويغ لحن ميمون ه

واستطاعت العامية على مرور الزمن أن تجبه الفصحى وتَزْوِيها فى حدود ضيقة لا تخرج عن الأسفار ورسائل البلغاء والكتاب العارفين بأصول لغتهم وأسرارها وفُصَحها ونوادرها وقواعدها ، وانهزمت الفصحى فى المعركة وأرهقت إرهاقا ، وما تزال كذلك حتى الآن .

وإن تعقيد النحاة للقواعد وإقامة الحواجز والعقبات أمام طالب العربية من أعظم ما نفر الناس من العربية ويسَّر الطريق للعامية حتى ربعت على العرش العتيد .

ثم إن أعظم عالم فى اللغة مهما بلغ علمه اتساعا واستيعابا وشمولا لا يستطيع أن يفهم معنى كل كلمة عربية ، ومرد هذا إلى اختلاف ألسنة العرب وإلى استحداث كل قبيلة كلمات لا تعرفها الأخرى ، وإلى المترادفات التى لا عداد لها مما كان عبئاً ثقيلاً على المعجم العربى — وإن كان للمترادف مزية فى بعض حالات التعبير — وإلى الحوشى ، وإلى تعدد اللهجات العربية ؛ واختصاص كل قطر وبيئة بألفاظ لا يعرفها إلا أصحاب هذا القطر كما مثلنا بقوله تعالى : (أوْ يَأخُذَهُم عَلَى تَخَوُّفٍ) حيث لم يعرفها إلا هذلى لأنها من لغتهم .

إن أى لغوى مهما اتسع علمه وزخرت معارفه لا يستطيع أن يفهم كل ما فى « المعجم العربى » الذى بقى لنا بعد اندثار آلاف الكلمات وانقراض آلاف المواد .

أما العامية فإن كل من يتحدث بها يفهم ما يقصد إليه

المتحدث والمخاطب ، ولا يند عنه فهم ما يريد التعبير عنه .

وهذه المزية التى اختصت بها العامية مكنت لها أعظم تمكين .

ومن الانتصارات المحسوبة للعامية : تطويعها معانى الشعر وأغراضه حتى رأينا « المواليا » فى العراق ، و« عروض البلد » فى الأندلس ، وأخيراً « الزجل » فى مصر ولبنان وسوريا ، و « النبط » فى الحجاز ونجد . ويجد المطلع على الشعر العامى القديم والجديد معانى رائعة مبتكرة ، وأخيلة جميلة ، وصوراً خلابة ، وتعبيراً راقصاً ، وموسيقى جذابة .

وكانا يذكر بعض الأغانى والقصائد المؤلفة باللغة العامية وما فيها من فتنة وجمال ورقة فى التعبير والتصوير ، وصدق فى الإحساس والشعور ، ، وبلاغة فى الأداء .

ورحابة صدر العامية من أعظم الأسباب التى صرفت الناس عن الفصحى ، كما أن تسامحها كان من الأسباب التى فتحت للعلوم اليونانية والفارسية والهندية وبعض فنون

هذه الأمم باب الترجمة ونقل المصطلحات التى لا مقابل لها فى العربية .

ولا شك عندى أن العامية فى حقيقتها عربية فصيحة ، ولكنها ممسوخة ، وأعتقد أن انفصالها عن أمها الفصحى بدأ من يوم أن ترك الإعراب وفسد الأعراب ، ثم أخذت العامية تبتعد قليلا قليلا عن أمها حتى أصبحت لغة ذات كيان خاص وسمات خاصة وقواعد خاصة ، ودخل فيها من الأعجمية شىء كثير ، بعضه بقى على حاله ، وبعضه صهر فى « بوتقة » العربية ، ولكنه بقى عامياً .

وبذلك كله — وبما سنذكر — ادخرت العامية قوة غلابة قهرت بها الفصحى وحلت محلها ، وأصبحت اللغةَ السائدة و « ركنت » العربية فى حدود ضيقة .

وبعد أن استتب للعامية الغلبة والسلطان انقسمت هى نفسها قسمين : قسما للخاصة تجد فيه الحلاوة والذوق وبعض

الفصاحة ، وقسما للعامة مليئا بالركاكة والإسفاف والفساد .

وصار لكل بلد عربى لغته العامية واختلفت فى كثير عن عامية البلد الآخر ، لأن لكل بلد طابعه الخاص ، ولهجته الخاصة تنتجهما طبيعة البلاد والبيئة واختلافُ الأصوات ، والتبايُن فى العمل ، ونصيب السكان من الثقافة والعلم والخلق .

ولو اتحدت العامية فى الحجاز ونجد وعسير واليمن ، والسودان والعراق ومصر وسوريا ولبنان والمغرب والبحرين ، وكلٍّ بلد عربى لكان افتياتها على الفصحى أشد وأفظع ، ولكن ضمن لها البقاء كتاب الله وحديث رسوله وكتب اللغة ودواوين الشعر والتراث الفكرى ، يضاف إلى ذلك أن العامية فى كل بلد محدودة بالحدود الإقليمية .

ولئن كانت لكل بلد عربى لغة عامية خاصة به فإن هنالك ألفاظا جد كثيرة تشترك فيها كل اللغات العامية لأنها فى حقيقتها عربية ، أو لأن لها قوة أعانتها على تخطى الحواجز الإقليمية والحدود الجغرافية .

وليس ما قدمنا كل الأسباب التى مكنت للعامية بل هنالك أسباب كثيرة نوجزها فيما يلى : —

١ — الرغبة فى السهولة، والانطلاق من القيود التى تكبل عشاق الفصحى ، والبعد عن المؤاخذة واللوم ، فأنا مهما ألحن فى العامية فلا تثريب على ، فإذا قلت : لَمْ ضربت ، فلا يسع أحدا أن يقول لى : أخطأت ، لأن قانون الفصحى غير قادر على من يتخذ العامية وسيلة فى الإفصاح والتعبير ، وحسبه أنه فى حمى العامية التى تصد عنه النقد والتوبيخ ؛

٢ — فقدان الذوق الأدبى وضعف السليقة العربية وهزالها .

٣ — تعدد اللهجات العربية وكثرتها اللذان كانا بمثابة ستار يتوارى خلفه كل من أخطأ لغة أو إعرابا أو صرفا .

٤ — العجز عن التعبير عن حالات النفس ومطالب

الحياة وما فيها تعبيراً لغويا صحيحا . فليس كل الناس متعلما أو سليقيا يقول فيعرب ، فكان من الطبيعى فى عصر انحطاط اللغة أن يبتعد المتحدث عن الصعوبة والقيود ، ويمشى فى الطريق السهل المأمون .

٥ ــ الجهل بمتن اللغة ومفرداتها وعلومها .

٦ ــ تحرر العامية من قواعد اللغة والنحو والصرف .

٧ ــ بعدها عن حوشى الألفاظ وأوابدها ، فلا تجد فيها أمثال هذه الكلمات العربية الفصيحة الاحرنجام ، والعنقاش ، والمبرطش .

٨ ــ تساهلها فى قبول روافد الحضارة والمدنية والأمم الأعجمية وألفاظها المستحدثة ، فأنت فى حمايتها تقول : فالوذج ويلنجوج ــ وهما مما استعمل فى الشعر والنثر قديما ــ وتليفون ، وترام ، وراديو ، ودنمو ، وموتور ، وتلغراف إلى

آلاف الكلمات دون أن تكون هدفا لسهام الناقدين .

٩ – تسامحها فى قبول كل كلام خارج على موازين الفصحى ، وقبول مصادر واشتقاقات وأفعال وأسماء دون أناة أو خجل أو نقاش ، ومعدة العامية – بعد – تستطيع أن تهضم كل كلمة وكل تركيب ، غير سائلة عن الصواب أو الخطإ ، ولا مبالية بالصحة والعلة .

١٠ – بعد العامية عن التعقيد اللفظى والمعنوى والتراكيب المعقدة الغامضة ، والوضوحُ والإبانة : فالعامة – مثلا – لا تعرف الفعل المبنى للمجهول ، وتستبدل به فعل المطاوعة فتقول فى ضُرِب ، وكسر ، ووجد ، وأكل ، وسمع : انضرب ، وانكسر ، وانوجد ، واتأكل ، وانسمع : وهذه تكاد تكون

قاعدة عامة فى عامية كل بلد عربى ؛
إلا أن فى عامية مصر كلمتين شذتا عن
القاعدة فى المبنى للمجهول ، وهما :
يوجد ، ويوكل ، وكلنا سمع قول
المصريين : البلدى يوكل .

وهذه القاعدة من الدلالات الواضحة على أن العامية تفر من المجهول إلى المعلوم ، ومن الصعب إلى السهل ، ومن الغامض إلى الواضح ، ولا تتعلق بأذيال العلل والتأويلات :

١١ – الاستعمار بجميع ألوانه :

أ والعامية – بعد – لا تبالى العربية الفصحى ، فهى تبيح لنفسها أن تأخذ منها ما تريد بالصورة التى تشاء بالصيغة التى ترتضيها ، فهى تستعمل – فى بعض مدن الحجاز – كلمة « السربوت » للشتم والتحقير ، وتقصد به من لا خير فيه ، وفصيحها « السبروت » وهو : الأرض التى لا نبات

فيها أو المسكين ذو الفاقة الشديدة . قال الحريرى :

لا تحقرن – أبيت اللعن – ذا أدب

لأن بدا خلق السربال سبروتا

وتستعمل ضلام وضُلمة بدل الفصيح : ظلام وظلمة . وتمطع فى تمطى ؛ ومجغة فى مجعة ، إلى غير ذلك من الكلمات التى تعد بالآلاف .

كما أن العامية أبقت على مئات الكلمات الفصيحة حتى ظن كثير من الخاصة أنها من العامية لدورانها على ألسنة المتحدثين بها مثل : استفرغ ، ومسقوى ، وعثرى ، وسيب ، ودبَّل ، وفنش . الخ .

ولم تقف العامية عند حدودها الأولى كما وقفت الفصحى عند الحدود التى أقامها العرب القدماء ، بل سارت العامية قدماً ولم تتخلف عن التطور ، واستحدثت آلاف الألفاظ أو عربت فى شتى الأغراض وفى العلوم

والصناعات والفنون والمخترعات ، وابتكرت ونقلت ، واقتبست من اللغات الحية وغير الحية ما وسعها دون قيد أو شرط أو وجل ، ووضعت لبعض المسميات الحديثة أسماء .

وأظن أن سهولة العامية وتسامحها وتساهلها ، وانطلاقها من كل قيد مما دعا بعض كتاب العرب ممن يجيدون العربية نفسها ، ومن أصحاب الجباه العالية أن يدعوا إلى العامية لتكون لغة الكتابة والعلم رغبة منهم — كما زعموا — فى تبسيط العلوم وتثقيف الأذهان ، و « تأميم » الثقافة الإنسانية حتى تكون قريبة من العامة وفى متناولهم .

هذا عند واحد أو اثنين من دعاة العامية ، أما الدعاة الآخرون إليها فهم ليسوا من لون واحد ، بل هم مختلفون ، فبعضهم لا يحسن العربية ولا يستطيع أن يرتفع إلى الخاصة فيدعو إلى العامية وإلى أن ينزل الخاصة إلى الحضيض أو منازل العامة .

وبعضهم يقوم بهذه الدعوة إرضاء للاستعمار وتنفيذاً لسياسة اللود دفرين السياسى البريطانى الذى أعد تقريراً لوزارة خارجية انكلترا بصدد لغة مصر العربية وطلب فيه تدوين العلوم بالعامية[1] ولكنه أخفق إخفاقا .

ودعوى كتابة العلوم والآداب والفنون بالعامية دعوى باطلة وحسبنا أن الدوس هكسلى ؛ العلامة الإنكليزى المشهور خطّأ من قال بضرورة كتابة العلم بلغة عامة الإنكليز ، لأن ذلك يضعف المواهب العلمية ويقضى على ملكة الإنشاء الفصحى ، وترقيةُ عقول العامة وإعدادهم لفهم لغة العلم العالية أسهل وأفضل من أن ينزل العلماء إلى العامة فيتقهقرون .

ولم أعرف على وجه التحقيق والدقة متى أطلق لفظ العامية على هذه اللغة ، ولكن مما لا شك فيه أن المقصود بالعامية النسبةُ إلى العامة وهم غير الخاصة . والمصادر التى تحت يدى تثبت أن كلمة عامة أو عامية عرفت فى القرن الثانى

---

(١) مجلة المجمع اللغو عدد ١ ص ٣٥١

الهجرى بالمعنى الذى نفهمه ، وقد ألف الكسائى على بن حمزة المتوفى سنة ١٨٩ هـ كتابا سماه (ما تلحن به العوام) ثم تتابعت العصور وظهرت كتب ورسائل شتى فى تصويب لحن العامة ألفها عديد من علماء اللغة ، وألِّفَ فى العربية أكثر من عشر رسائل تحمل اسم (لحن العامة) منها : رسالة أبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هـ وأبى عثمان بكر بن محمد المازنى المتوفى نحو سنة ٢٤٨ هـ وأبى حاتم السجستانى المتوفى سنة ٢٥٥ وأبى حنيفة الدينورى المتوفى سنة ٢٩٠ هـ وأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ هـ وابن الجوزى المتوفى سنة ٥٥٨ وابن هشام اللخمى المتوفى سنة ٥٧٠ هـ وغيرهم .

وألف أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ كتابا سماه (لحن الخاصة) ثم ألفت رسائل وكتب كثيرة فى هذا الباب لعلماء كثير منهم : الجواليقى وابن جزى الكلبى والحريرى ومحمد بن على الأزدى وأبو الخير سلامة الكفرطابى وابن

٥٥

باقى السبتى ومحمد النهالى الحلبي ومحمد الأمين المحبي وشهاب الدين الخفاجي والبشبيشي وابن كمال باشا وخسروزاده .

وللمعاصرين دراسات وكتب فى العامية كثيرة .

وللعامية قواعد كالفصحى ولكنها قواعد سهلة ، والقواعد تأتى متأخرة – دائما – عن اللغة لضبطها ، ولكن أحدا لم يعنَّ نفسه بدراستها كما دُرِسَتْ قواعد الفصحى ، فقمت بدراستها ومعارضتها بقواعد العربية ووصلت إلى نتائج حسنة سأنشرها متى رضيت عنها ووضعتها فى صيغتها النهائية .

ومما استرعى نظرى أن فى اللغة العامية رواسب من اللهجات العربية قبل أن تفصح ، ومن االلغات الشاذة والمهجورة قبل أن تستوى وتدخل فى « عملية » التنقيح اللغوى العام ، تلك العملية التى جاءت بعد أن تقدمت العربية ، والتى سبقتها عهود لغوية كانت اللغة فيها غير خاضعة لقواعد مضبوطة للتعبير ، ولا لنظام خاص بالأداء[1] .

---

(١) اللغة والنحو ، للدكتور حسن عون .

والعامية تشارك الفصحى فى كثير من الخصائص والمميزات ، فإذا كانت العربية تَعدُ الاشتقاق من مفاخرها فللعامية نصيب حسن منه ، وتشارك العاميةُ الفصحى فى التضاد والكناية والإتباع والمزاوجة والتكرار والتضعيف والأمثال والكنية والنحت وجمع الجمع وصياغة الأفعال من الأسماء .

ومن المفارقات أن تنتشر العامية هذا الانتشار الذى لا يحده شيء فى حين أنها لا تجد مدارس ولا دعاة ، والأغرب من هذا أن تتغلب على الفصحى فى حين أن للفصحى مدارس وجامعات ووسائل نشر مختلفةً ودعاةً لا يفترون .

إلا أننى أرى أن العامية الموجودة الآن أخذت تقترب من الفصحى قليلا قليلا بفضل انتشار التعليم والإذاعة والصحف ، واعتقد أن الحكومات العربية لو عنيت بأمر التعليم ونشره وشجعت الصحافة الأدبيه والعلمية ورجال الفكر والقلم والمدرسين والطلاب والأندية والجماعات التى

تخدم الآداب والعلوم والفنون ، وفكرت كل دولة فى إيجاد مجمع لغوى على غرار مجمع اللغة العربية بمصر لأفادت لغة القرآن كثيرا ، ولرفعت العامية وقربتها من أمها بعد العقوق .

ودراسة الأسباب التى أدت إلى غلبة العامية ، وتيسيرُ قواعد العربية وحذفُ الفضول منها تمكننا من رفع مستوى العامة لغويا .

كما أن رد الكلمات العامية إلى أصولها العربية من أعظم أسباب التقريب بينها وبين الفصحى ، وقد قمت بنشر مقالات كثيرة عنيت فيها بدراسة الكلمات العامية وإعادتها إلى أصلها العربى ، وأذعت بأحاديث كثيرة فى هذا الموضوع كان لها أثر طيب فى رفع مستوى العامية وطمأنة الألى يستعملون تلك الألفاظ بأنهم قريبون من العربية ، وجذبهم إلى محاريبها .

وليس معنى هذا أن القضاء على العامية سهل أومستطاع ، بل القصد من هذه الدعوة العمل على تعميم الفصحى

وتطويعها لأغراضنا وحاجتنا ومطالبنا ، والتساهلُ في النقل والتعريب والوضع بعد صبغ ما نحن في حاجة إليه بالصبغة العربية وإخضاعها لموازين الفصحى وقواعدها ومقاييسها .

وفي وسعنا أن نبدأ في تهذيب العامية وتقريبها من الفصحى برد الكلمات التي انقلبت عامية بوساطة التحريف والتصحيف والإبدال والقلب ؛ واختلاف لهجات الأمم العربية المعاصرة ، وإباحة الأخذ من العامية . فإذا جاز للعرب القدماء الوضع والتعريب فجائز لنا ما جاز لهم ، وإذا جاز لنا أن نعرب وننقل من اللغات غير العربية فجائز لنا أن ننقل من العامية ما وضعت أو عربت ، لأنها عربية في أصلها وصميمها .

إن في العامية كلمات كثيرة تفيد اللسان العربي ، وجدير بنا أن نضمها في «المعجم» ويسعنا أن نفرد للمعرَّب المحدث والعامي والدخيل مما لم يعرف قديما معجما خاصا نلحقه بالمعجم

الفصيح ؛ ليكون دلالة على ما استحدث أو تطور فى لغاتنا العامية .

إلا أننى لا أستطيع أن أسيغ أو أبيح إطلاق القيود باسم التسهيل ، لئلا نجعل للفوضى الكلمة النافذة ، والسهولة لا تتيح للإنسان علماً وعمقا ، ولا يرود صعب العلم بالسهولة التى ينشدها دعاة العامية من الضعفاء الجاهلين أوذوى الهوى ، فكل علم أوفن صعب ، بل هناك علوم أصعب من اللغة ، ومع هذا لم يقم أحد بالدعوة إلى تسهيله ، لأنه غير ممكن .

ومن الجهل أن يقوم دعاة العامية بالدعوة إلى ترك الإعراب ، فهم يجهلون كل الجهل أن الحركة فى الكلمة العربية ليست زيادة يستغنى عنها ، والحركة ليست خاصة بآخر الكلمة حتى نسكنها مجاملة للضعيف منا حتى يبعد عن اللحن أو الخطأ ، بل الحركة من بنية الكلمة ، وجزء من كل حرف ننطق به ، ولا يمكن نطق كلمة بدون تحريك حروفها :

وإذا ماشينا دعاة ترك الإعراب ، فماذا هم صانعون بالحروف التي تسبق حرف الإعراب ؟ أنترك حركاتها ؟

ومن المفارقات العجيبة أن يظن دعاة العامية أنفسهم مجددين متقدمين ، ناسين أو غافلين أن العامية أقدم من الفصحى ، فهم — على هذا — رجعيون متخلفون ، أما دعاة الفصحى فهم المتحررون المتقدمون .

أحمد عبد الغفور عطار

